



لا يزال مصير الأسد يشكل، منذ بيان جنيف في العام 2012، العقبة الرئيسية أمام التوصل إلى حل سياسي للحرب السورية الدائرة منذ خمس سنوات، تماماً كما كان السبب الرئيسي في استمرار الحرب، وتوحش ممارساتها على مدى تلك السنوات. وتکاد مفاوضات جنيف³ أن تنهار، إن لم تكن قد انهارت بالفعل، نتيجة إصرار النظام وبعض الدول الحامية له على أن يكون الأسد جزءاً من الحل، وليس النظام فقط، في المرحلة الانتقالية.

يبيرر بعضهم هذا الإصرار على وجود الأسد كشخص، بمعزل عن النظام، وهو يعرفون تماماً أن هذا الوجود هو الذي عطل الحل السياسي، بادعاء الحفاظ على الشرعية. وهم يقصدون أن الأسد لا يزال قانونياً الرئيس الشرعي للبلاد، وصل إلى السلطة بانتخابات قانونية، وأن للشعب الذي انتخبه وحده حق تقرير مصيره في انتخابات عامة، وأن إجباره على الرحيل يعني انتهاك الدستور وقواعد العمل القانونية والسياسية.

ويقول آخرون إن وجود الأسد، على الرغم من كل ما ارتكبه من أخطاء وانتهاكات لم تخطر ببال محظوظ، ضروري للحفاظ على مؤسسات الدولة، وصون سوريا من الواقع في الفوضى التي دخلت فيها ليبيا، ومن قبلها العراق، بعد تفكك جهاز الدولة وتدميرها. وهذا يتضمن الاعتقاد بأن مجرد انسحاب الأسد، أو إزاحته من الحكم، سوف يدفع أكتيرية أنصاره إلى الهرب، وترك المؤسسات تنهار لوحدها، وأن وجوده ضمانة، إذن، لعدم تفكك الدولة ومؤسساتها.

ويعتقد قطاع ثالث من المتمسكون بوجود الأسد، من السوريين وغيرهم، أن بقاء الأسد هو الضمانة الوحيدة لمنع انفجار الحقد والانتقام ضد الطائفة المتهمة بالوقوف إلى جانبه، وأن هذا الوجود صمام الأمان لحماية باقي الأقليات التي وقف أغلبها إلى جانب النظام، خوفاً من انقضاض الأكتيرية عليها، أو انتقامها منها، ومن ثم تهميشها لها في مرحلة مقبلة. أما الذريعة الأكثر تداولاً الآن، ومنذ سنتين، فهي حاجة سوريا والأمن العالمي لخبرة جيش الأسد وأجهزة مخابراته القوية

ومليشياته المحلية والأجنبية للوقوف في وجه المد السلفي الجهادي المتطرف، المتجسد بداعش والقاعدة، وأن تعزيز الدولة السورية القائمة، بأجهزتها العسكرية والأمنية، هو الطريق الأقصر لوضع حد لهذا التمدد وتحرير المنطقة من الوباء الأسود الذي يهدّد الجميع من سوريين وغير سوريين. بل تطور هذا الطرح في الأشهر الماضية أبعد من ذلك، وتحول إلى مطالب دولية في قبول المعارضة وقف القتال والاحتجاج والمعارضة للنظام، والعمل إلى جانبه من أجل صد الهجمة الشرسة للمتطرفين. ومن هذا الطرح، ولدت فكرة الهدنة والتفاهمات الدولية الروسية الأميركيّة والأوروبيّة لإطلاق جولة المفاوضات الجديدة في جنيف 3.

عن حكم الأسد ونظامه:

ليس من الصعب الرد على هذه الادعاءات التي تحاول أن تجد تبريراً لتخلّي بعض الدول الكبيرة عن مسؤولياتها، ولأطماع غير مشروعة، ولا يمكن الإفصاح عنها لبعضها الآخر.

وإذا لم نشأ أن نستعيد تصريحات أكثر دول العالم عن فقدان الأسد شرعنته، لشنّه الحرب على شعبه، ورفضه القبول بالحوار معه، يكفي أن نذكّر بأن نظام الأسد بأكمله ثمرة انقلاب عسكري، ولم يضمن استمراره إلا بالانتهاك الدائم للشرعية الدستورية وإرادة الشعب، وأن جميع الانتخابات كانت استفتاءاتٍ إذعانية على مرشح واحد للرئيس، أو قائمة مرشحين مختارين سلفاً من النظام لمجلس الشعب. وأن بشار الأسد ورث الحكم عن أبيه، من خلال انقلاب عسكري أبيض، عطل فيه قانون فراغ السلطة المعهول به، فجرّد النائب الأول لرئيس الجمهورية من صلاحياته، بعد أن فرض عليه تنصيبه قائداً للجيش والحزب. وبعكس ما يدعى الخائفون على الدستور، لم يسع نظام الأسد من الأب إلى الابن إلى تكريس أي حياة دستورية، لكنه قام واستمر على التعطيل الرسمي للدستور بفرض قانون الطوارئ الذي علق الدستور في فترة حكم النظام كلها، حتى اندلعت الثورة الشعبية في العام 2011، والاعتماد على ما يخوله له هذا القانون من صلاحيات، من أجل إلغاء استقلال أجهزة الدولة، وتقويض أصول عملها القانونية، وإخضاعها، وجميع المواطنين، إلى إرادة أجهزة الأمن والمخابرات التي حولها إلى مليشيات تابعة مباشرةً لإرادة الحاكم، ولا تخضع هي نفسها ولا يطاول عملها أي قانون، ولا تتمكن محاسبتها، مهما ارتكبت من الجرائم والانتهاكات الإنسانية. والإطاحة بنظام العسف العاري وتعطيل الحياة الدستورية وبالتالي السياسية والقانونية في البلاد، وما نجم عن ذلك من تحول البلاد إلى مزرعة عبودية، كان ولا يزال الدافع الأول لثورة السوريين والاسم الذي أطلق عليها بوصفها ثورة الكرامة والحرية.

أما الذريعة الثانية التي تجعل من الأسد الضامن بشخصه، استمرار مؤسسات الدولة، وفي طليعتها المؤسسة العسكرية والأمنية، في المرحلة الانتقالية، فهو يثير السخرية، بمقدار ما يخفى مسؤولية الأسد شخصياً عن تقويض هذه المؤسسات، وتدمير أسس عملها القانونية. فمن جهةٍ، فقدت أغلب هذه المؤسسات، في ظل حكمه، هويتها الخاصة، وتحولت جميعاً إلى أدواتٍ لخدمة الحاكم، وضمان سيطرته الشخصية، وأصبحت، منذ خمس سنوات، وسائل تستخدمها السلطة لحصار السوريين، أو إخضاعهم أو تشريدهم أو قتلهم. فلم يعد الجيش العربي السوري جيش الشعب السوري الذي يحمي سيادته وأمنه، ولا أجهزة الأمن أجهزةً تعمل على الدفاع عن حقوق المواطنين، ولم تنشأ أصلاً على أن تكون هذه عقيدتها في أي حقبة سابقة للنظام. كانت، وأصبحت بشكل أكبر في العقود الماضية، بعد أن فرغت من مضمونها القانوني، وأعيد تشكيلاها على مستوى العناصر وقواعد العمل، أداة لخدمة السلطة الطغيوتية القائمة، ولتمكين النظام وقادته الاجتماعية من حيازة القسم الأكبر من ثروة البلاد ومواردها. وهذا هو الذي يفسر خصوصيتها الأعمى والسرع في إرادة الأسد، وتماسكها النسبي أمام المهام اللاوطنية واللإنسانية التي أعطيت لها خلال الحرب.

وفي ما يتعلق بضمان الأسد، أو وجوده، لأمن الأقليات، فهو بالتأكيد مزحة سقيمة، فعدا عن أنه يعمّق الشق بين الأقليات

والأكثرية، باتهامه الضمني الأخيرة بنوايا لم يكن لها أي أساس في الواقع والتاريخ، فهو يغذّي الخوف عند الأقليات، ويعمق لديها الشعور بوضعها الأدنى، ويحرّض الأكثرية على العداء لها، بمقدار ما يوحي بأنّ ضمان أمنها لا يقوم إلا على فرض نظم الحكم الاستثنائية، وحرمان المجتمع بأكمله، أي الأكثرية أيضاً، من حقوقه الدستورية في الحياة، في ظل دولةٍ قانونيةٍ وقضاء عادل ومساواة حقيقة، بصرف النظر عن الأصل والنسب والدين والقومية. الواقع أن مثل هذا الادعاء يؤكّد أن الدول الكبرى، مثل نظام الأسد، لا تزال تستخدم ورقة الخوف على مصير الأقليات من أجل تبرير حرمان الشعب السوري، بأكمله، من حقه في تقرير مصيره، أي من سيادته، والاستمرار في فرض الوصاية عليه. لم يحظ وجود الأسد حقاً أيّ من الأقليات السورية القومية أو الدينية، لكنه ورط الجميع في حربٍ إبادة متبادلة، وصار مصير جميع الأقليات التي ارتبطت به، واعتقدت أنها تستطيع أن تضمن حقوقها، وتحمي نفسها بالالتصاق والالتحاق باليكشاتورية، والتمسك بطرق الحكم التعسفية واللاقانونية.

وبالنسبة لدور الأسد ضامناً لتماسك المؤسسات العسكرية والأمنية، وبالتالي، ضرورة الإبقاء عليه، وربما التحالف معه من أجل استخدامها في مواجهة داعش والحركات المتطرفة الجهادية، فهي تذكر بالاختيار بين الكوليرا والطاعون. إذ إنّ أضرار سياسة الأسد، وخياراته الدموية، لم تكن أقل على السوريين من التي تحملها الحركات التكفيرية، كلاهما لا يعيشان وينهضان إلا بحل الدولة وتقويض القانون، واستبدالهما بإرادة أشخاص، أمراء حرب أو زعماء بالوراثة، لا هدف لهم سوى تنمية استخدام الدولة ومواردها، لتنمية قاعدة الأتباع والموالين، لتحقيق أهدافهم الخاصة. وهذا هو أساس تحالفهما الموضوعي، وأحياناً الوعي أيضاً، كما برز في السنوات الخمس الماضية، حيث ظهر التنازع العميق بين خططهما التي صبت جمِيعاً في إخضاع الشعب وفرض الإذعان عليه وتدمير ثورة الشعب الحاملة لإعادة تأسيس سلطة الدولة العامة على المبادئ الدستورية، وإقامة حكم القانون، وتأهيل مؤسسات الدولة، وفرض منطقها على حساب منطق التبعية الشخصية. ولا يخفى النظام هذا التحالف أبداً، فهو يؤكّد كل يوم بشعاراته، وممارسته معاً، أنه لا خيار هناك للسوريين سوى بين حكم الطاعون الداعشي أو حكم الكوليرا الأсидي، وأنه لا قيمة لإرادة الشعب ولا مكان.

يعكس ما يريد مدعوه الحرصن على المؤسسات، يشكل إبعاد الأسد الشرط الأول والرئيس للنجاح في أي إعادة هيكلة لهذه المؤسسات، وتأهيلها لتحول من جديد إلى مؤسساتٍ وطنيةٍ، تخضع لإرادة الشعب، وتعمل ضمن إطار دستورية، بعد أن تحولت إلى أداة في خدمة مصالح جزئية وmafiovية. وبقاء الأسد يعني تفشيل هذه العملية منذ البدء، وهذا، مهما كان شكل وجوده على رأسها، رمزاً أم فعلياً. ومثال على عبد الله صالح في اليمن خير دليل على ذلك، مع العلم أن صالح لم يحظ بأي حضور قانوني في نظام المصالحة الوطنية.

وليس من المبالغة القول إن سياسة المتاجرة بمسألة الأقليات كانت وبالاً على هذه الأخيرة، وأنها خسرت في الحرب المعلنة على الأكثرية الشعبية أكثر مما كان يمكن أن تخسره في أي نزاع أهلي، بعيد الاحتمال أصلاً، في إطار دولة تقوم على مبدأ المساواة والحق والقانون والمساواة. لا تستفيد الأقليات أبداً من فصلها عن بقية مواطنيها وتسلیط الأضواء عليها، وتعيّتها ضدّ الأكثرية، إلا إذا كان الهدف استخدامها أداة للضغط من دول أجنبية طامعة في السيطرة والنفوذ، أو من أجل تبرير القبول بحكم وصاية أجنبية جديدة على الدولة السورية. ومثل هذه السياسة التي تستخدم الأقليات أداة ضغط على الأكثرية، سياسة دول أجنبية أم منظمات سياسية داخلية، سيكون لها مفعول معاكِس على الأقليات، وهي تهدد بأن تجعل منها كبس فداء لأي ثورة شعبية قادمة.

أما المراهنة على الأسد لمحاربة الإرهاب فهي أكبر خدمة تقدمها الدول الأجنبية المنذورة من تداعيات سياساتها الأمنية الخطأة في سوريا وغيرها، للمنظمات الإرهابية، ومحاولة لتصحيح الخطأ بخطاً أكبر، وتكرار لتجربة العراق الكارثية في

الرهان على مليشيات طائفية وأجنبية، لمحاربة مليشيات مثيلة، وهي أفضل وسيلة لتقويض فرصة إعادة بناء الدولة المركزية والقانونية وتخفيف مستنقع العنف والظلم والفوبي والنزاع الذي ينبع التطرف والإرهاب ويعممه. لا يمكن لمن قام حكمه على نقض الدستور، وتفریغه من محتواه وتعليقه الدائم، أن يجعل من وجوده ضمانةً لإقامة حياة دستورية جديدة في سوريا، ولا من الشخص الذي جعل من إرادته الخاصة بدليلاً للقانون أن يضمن إعادة بناء مؤسسات الدولة على أساس قانونية، ولا من استخدم الأقليات درعاً يقي به نفسه وسلطته، من دون أي مراعاة لمصالحها ومستقبلها، أن يشكل بوجوده أي حماية لها، ولا لمن لم يكف عن اللعب بورقة الإرهاب، وعن التحالف معها لتحقيق أغراضه في الداخل الوطني وفي المنطقة، وتاجر بأسرارها، وبنى على اختراقاته لها أمجاداً دولية، أن يتخلّ عنها، أو أن يكون الدواء الشافي لدائها. كان وجود الأسد وسيظل أكبر تجسيدٍ، رمزي وسياسي وإنساني، لعمق الكارثة السورية وأسبابها: عبادة الشخصية بدل احترام الدستور، وحكم القوة والتبعية الشخصية والتعسف الشامل بدل حكم القانون، وتأجيج التناقضات الثانوية داخل المجتمع لضمان تماسك سلطة الأقلية وسيطرتها وانفصالتها عن الشعب، والاستخدام اليومي للعنف والتطرف والارهاب، من أجل ردع الخصوم وإرهابهم، داخل البلاد وخارجها.

ولهذا السبب بالذات، أعني الرهان على تحالف المعارضة مع الأسد ضد الإرهاب، انهارت مفاوضات جنيف، أو سوف تنهار، طالما أنه قام على إنكار القضية السورية برمتها، واعتبارها قضية ثانوية، بالمقارنة مع القضية الأمنية الدولية، وإخضاعه أجندـة تحرـر الشعب السوري، واستعادة حقوقه الدستورية والسياسية، وأمنه ووحدة أراضيه واستقلالـه، لأجندـة الحرب ضد الإرهاب التي تحولت إلى أجندـة دولية، لا تعنى إلا بقضـية الأمـن الغـربي والروسي.

معنى الرهان على دور الأسد وبقائه:

لا يمكن للأسد أن يكون شريكاً في أي حل، وهو الذي انتزع الحكم بانقلابٍ على الشرعية، وثبت أركان حكمه بسلسلة من الجرائم ضد الإنسانية، ولا يزال السبب الرئيس في تسعير القتال وال الحرب. ومحاولة فرضه بالقوة شريكاً في أي حل سياسي سوري تعني: أن لا يسطيع السوريون الذين فقدوا أبناءهم أن يخرجوا من الحداد أبداً، أن يشرعن استخدام السلاح الكيماوي وأسلحة الدمار الشامل وسيلة لفرض السيطرة والحكم، أن يشرعن الحصار والتجويع والقتل بالبراميل المتفجرة العشوائية، أن تصبح حروب التطهير العرقية أموراً مقبولة وعادية، أن يصبح التهجير الجماعي القسري للسكان سياسة طبيعية، أن يتم استخدام معسكرات الاعتقال والتصفية في الصراعات السياسية، أن تصبح الفاشية خيارات سياسية ووجهات نظر، أن يعم القتل على الهوية ويهدـم حـكم القانون، أن يـصبح الإـرهاب استـراتيجـية سيـاستـة وتجـارـة دولـية جـيوـسيـاسـية، أن تتحول البلدان والشعوب إلى حقول تدريب وميدانـين تجارـب على الأسلحة النوعـية... باختصار أن تـشرعـن البرـبرـية.

من دون قطع واضح وكامل مع روح النظام القائم وقواعد عمله، ومن دون محاسبة ومحاكمة عادلة، تتصف المظلومين، لن تقوم وحدة وطنية، ولن تولد دولة قانون، ولن ينشأ شعبٌ ولا يستقيم حق ولا اعتبار، ولن تخرج سوريا من حروب التطهير والإبادة الجماعية، إلا كـي تـقعـنـ منـ جـديـدـ فيـ حـربـ الـانتـقامـ الطـائـفـيـ والعـشـائـرـيـ والعـائـلـيـ وـالـشـخصـيـةـ. إنه يعني استحلـة مصالحة الناس مع بعضـهمـ، وـشـرـعـنةـ تقـسـيمـ الشـعـبـ وـتـكـرـيسـهـ بـيـنـ قـتـلـةـ وـضـحـاـيـاـ، أـسـيـادـ وـعـبـيدـ، تـابـعـيـنـ للـسـلـطـةـ وـكـلـابـ لهاـ وـثـائـرـينـ أـبـدـيـنـ عـلـيـهاـ. إنه يعني، باختصار، أنه لن تقوم للدولة والسلطة والمدنية والحضارة قائمة بعدـ الآـنـ.

ارتكتـبـتـ فيـ سـورـيـةـ جـريـمةـ كـبـرىـ، أـبـيـدـتـ فـيـهاـ حـيـاةـ شـعـبـ كـامـلـ، بـسـبـبـ تـعـلـقـ الأـسـدـ بـالـحـكـمـ وـاسـتـخدـامـ هـوـسـهـ بـالـسـلـطـةـ منـ قـوىـ دـاخـلـيـةـ وـخـارـجـيـةـ مـفـتـرسـةـ، لاـ مـكـانـ لـاحـتـراـمـ الـحـقـ وـالـقـانـونـ وـالـقـيـمـ الـإـنـسـانـيـةـ الـأـسـاسـيـةـ عـنـدـهـاـ. طـمـسـ مـعـالـمـ الـجـريـمةـ وـالـمـرـورـ عـلـيـهاـ منـ دونـ مـحـاسـبـةـ، وـلـاـ مـسـاءـلـةـ، هوـ توـاطـئـ معـ القـاتـلـ، وـعـدـمـ الـاعـتـرـافـ بـحـقـوقـ النـاسـ وـتـعـوـيـضـهـمـ، المعـنـوـيـ إنـ لمـ يـكـنـ المـادـيـ، يعنيـ شـرـعـنةـ الـجـريـمةـ، وـتـعـمـيمـهـاـ، وـتـعـمـيقـ الشـعـورـ بـالـظـلـمـ، وـمـنـ وـرـائـهـ، فـتـحـ المـجـالـ وـاسـعـاـ مـشـاعـرـ

التطّرف وتغذية الإرهاب.

يمكن وينبغي أن تؤخذ بالاعتبار مصالح الخروج من الحرب، وتعزيز فرص المصالحة الوطنية ببعض التسويات والتسامح مع بعض الجرائم الصغيرة، لكن إعفاءهم من المسؤولية، وترئسته ساحتهم من دون مساءلة، ولا حساب خيانة للعدالة وتهديم معنى القانون وروح المسؤولية والواجب والأخلاق. وكذلك الحال في السعي إلى محاربة جرائم الأسد ونظامه، بمساواتها مع جرائم القوى المناهضة له، مهما كانت. فلا تقارن مسؤوليات رئيس دولة يتمتع بصلاحياتٍ مطلقة في تعليم العنف بمسؤولية شباب حملوا السلاح دفاعاً عن أنفسهم، ولا تبريرها بوضعها في موازاة جرائم المنظمات الإرهابية التي يتحمل الأسد القسط الأكبر منها، بمقدار ما كان ظهور هذه المنظمات ونموها نتيجة خياراته الدموية والشيطانية، ورفضه الحوار مع شعبه، لإيجاد مخرج سريع للأزمة الوطنية، ومراعنته بالعكس من ذلك على إخضاع ثورة هذا الشعب، وشق صفوفه، والاستقواء بالقوى الأجنبية. إعادة الدول الكبرى الرهان على الأسد ودوره لا يعبر عن استمرار المجتمع الدولي في التخلص عن مسؤولياته والتزاماته تجاه الأمن والسلام في سوريا، العضو في الأمم المتحدة، فحسب، وإنما تعكس روح الأنانية والعنصرية والاستهتار بحياة الشعوب ومصيرها التي طبعت منذ عقود، ولا تزال تحكم بأجندة السياسة الدولية، والتي تشكل الملمهم الأول لمنظمات الإرهاب العالمية، والسبب الرئيسي في وجودها واستمرارها وازدهار تجارتها.

العربي الجديد

المصادر: